

١٣٠ عاماً على ولادة «ناسك الشخروب» ما خفي من رحلة ميخائيل نعيمة السوفياتية

عماد الدين رائف

صحافي وكاتب، لبنان.

تحتفل الأوساط الأدبية في العام الحالي بالذكرى الثلاثين بعد المئة لولادة الكاتب الكبير ميخائيل نعيمة (١٨٨٩ - ١٩٨٨)، الذي تعتبره المؤسسات التعليمية العالية في أوكرانيا وروسيا ودول الاتحاد السوفياتي السابق الحريج اللبناني الأول والأبرز من معاهد روسيا القيصرية. وكان نعيمة قد أوفد من دار المعلمين في الناصرة لمتابعة تعليمه في سمينار بولتافا الروحي التابع للجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية في العام ١٩٠٦، حيث أمضى خمس سنوات، عاد إثرها إلى لبنان في العام ١٩١١، قبل أن يبدأ رحلته الأميركية التي دامت عقدين من الزمن.

لعبت أوكرانيا دوراً مميزاً في حياة الكاتب ونقده الأدبي. في بولتافا الأوكرانية، وعبر بوابة الأدب الروسي فتحت الأفق أمام ميخائيل نعيمة الأديب، أو كما عبّر عن ذلك في رسالة له إلى العلامة إغناطيوس كراتشكوفسكي (١٨٨٣ - ١٩٥١) أنه «إنسان تربى على أدب بوشكين وليرمنتوف وتورغينيف الرفيع، وضحك غوغول عبر دموعه، وواقعية تولستوي الرائعة...». وكان نعيمة في الوقت عينه مطلعاً عن كُتب على الأدب الأوكراني، وقد ثمن نقاد الأدب عالياً ترجمة نعيمة لقصائد الشاعر الأوكراني الأكبر تاراس شيفتشينكو، ومن بينها قصيدة «زابوفيت» (الميثاق)، وذلك لمناسبة الذكرى الـ ١٥٠ على ولادة الشاعر (الغريبال الجديد). ويكتشف اختيار نعيمة هذه القصائد مدى تضامنه مع سعي الشعب الأوكراني إلى الحرية. يقول في ترجمة «زابوفيت»:

عندما يدركني الموت
أحدوني وسط سهب فسح
من سهوب أوكرانيا الحبيبة.

ولبكن لحدي على هضبة
تطلُّ على هضاب كثيرة
وعلى الحقول المترامية
وعلى نهر الـ«دنيبر»
وأسمع منها
هدير ذلك الهدار الجبار
وأبصر كيف يحمل إلى البحر
دماء أعداء أوكرانيا.
عندئذٍ أنهض من لحدي
وأهجر الحقول والهضاب
وبوثبة واحدة أدرك عرش الله
لأرفع إليه صلاتي
أما قبل ذلك
فأنا لم أكن أعرف الله.
أحدوني ثم هبوا
وحظمو الأصفاد
وبدماء الأعداء البغيضة
أزواوا الحرية. ثم لا تنسوا أن تذكروني
بكلمة طيبة
في أسرتكم الجديدة العظيمة
أسرة الحرية

العودة بعد نصف قرن

لم يعد ميخائيل نعيمة إلى أوكرانيا أو روسيا من جديد سوى في العام ١٩٥٦، وذلك بدعوة من اتحاد الكتاب السوفيات، ودون انطباعاته عن هذه الرحلة في كتاب يعدّ من كلاسيكيات الأدب العربي الحديث، حمل عنوان «أبعد من موسكو ومن واشنطن»، ويمكننا اعتبار الكتاب إضافةً نوعيّةً إلى كتاب نعيمة الشهير «سبعون»، الذي هو عبارة



❖
نعيمة مع الكتاب
الأوكرانيين أمام
المبنى السابق
للسمينار الروحي
حيث درس

وأرجو عند النهاية من طبعه أن أرسل إليك نسخة منه. سيجد الشيوعيون فيه أشياء كثيرة إلى جانبهم وأشياء لا تروقهم. ولذلك أخشى أن تلاقي ترجمته إلى الروسية ونشرها في روسيا بعض الصعوبات» (معهد المخطوطات في مكتبة فيرناندسكي الوطنية الأوكرانية، ملف ١٧٣، الرقم ١٠٢). في رسالة أخرى بتاريخ ٥ حزيران / يونيو، يخبر نعيمة صديقه بتأخير طراً على صدور الكتاب ويعده مجدداً بإرسال نسخة فور خروجه من المطبعة. وما إن حصل كزما على النسخة حتى عكف على ترجمتها، وذلك يظهر في مخطوط الترجمة، حيث يؤرّخ في أعلى الصفحة الأولى من الدفتر في ١٨ آب / أغسطس ١٩٥٧. ويشكره نعيمة في رسالة بتاريخ ٢٣ تشرين الأول / أكتوبر لكونه قطع شوطاً كبيراً في الترجمة (معهد المخطوطات، ملف ١٧٣، الرقم ١٠٧)، ويقول في رسالته: «رجائي أن توفّق في ترجمته ثمّ في نشره حتى وإن كان فيه ما ليس يرضي أصحابنا السوفيات كلّ الرضى. فالمهمّ أنّه ينصفهم وعليهم أن يقبلوه بطيبة خاطر».

مصير الترجمة

«عليهم أن يقبلوه بطيبة خاطر!»، كيف ذلك والسلطة لا تقبل بأيّ شكل من أشكال الانتقاد؟ كان كزما يعرف جيّداً «أصحابنا السوفيات»، وربّما كان يعرف أنّه - وإن برّ بوعده لصديقه - فإنّ ترجمته لن تطبع. فقد اختبر بنفسه اضطراره «مفوضية الشعب للشؤون الداخليّة - NKVD» (كي جي بي لاحقاً) للتّخب الأوكرانية في العام ١٩٢٦، عندما اعتقلت المفوضية الأكاديمي والمستشرق الكبير السكرتير الدائم لأكاديمية العلوم الأوكرانية أغاتانغل كرمسكي وألحقته به كزما، وفقدوا وظيفتهما، بعدما عملا معاً لفترة طويلة على بحوثٍ علميّة، منها كتاب «قصّة مؤرّخ القرن الحادي عشر العربيّ أبي شجاع الروذراوريّ كيف تنصّر الروس»، الموقع باسميهما والصادر عن أكاديمية العلوم الأوكرانية في العام ١٩٢٧ (الكتاب ترجمة ودراسة لفصول من «ذيل تجارب الأمم» للوزير أبي شجاع محمّد بن الحسين ظهير الدين، ويحتوي على أحداث ٢٥ سنة: من ٣٦٩ إلى ٣٩٣ هجرية، وهو القسم الأخير من كتاب تجارب الأمم لأبي علي مسكويه).

وفي العام ١٩٣٨ اعتقل كزما مرّة أخرى وقضى في السجن نحو ستّة أشهر. ولا تزال وثائق اعتقاله محفوظة في أرشيف جهاز الأمن الأوكرانيّ (إن.كي.في.دي، أوكرانيا السوفياتيّة، الملفّ الرقم ٤٦٦٣٧، محفوظ

عن سيرة ذاتيّة ثلاثيّة الحلقات. وقد تُرجم الجزء الأوّل من هذا الكتاب إلى اللغة الروسيّة (دار ناوكا، ١٩٨٠) بتوقيع المستشرقة سفيتلانا باتسييفا (١٩٢٨ - ١٩٨٢)، وعن زيارته تلك إلى الاتحاد السوفياتيّ يشير الكاتب باختصار في الجزء الثالث منه (١٩٤٩ - ١٩٥٩)، ويحيل القراء إلى كتابه «أبعد من موسكو ومن واشنطن». عندما دوّن ميخائيل نعيمة هذا الكتاب كان على معرفة وطيدة بالكاتب والباحث في الدراسات العربيّة توفيق كزما (١٨٨٢ - ١٩٥٨)، وهو دمشقيّ المولد أمضى حياته في أوكرانيا، وتقاطعت حياته مع حياة نعيمة في محطّات كثيرة، إذ إنّه وُلد في أسرة عربيّة أرثوذكسيّة كنعيمة، وكلاهما خريجا المدارس المسكويّة، ثمّ دار المعلمين في الناصرة، ثمّ المعاهد الروحيّة في أوكرانيا، فقد أنهى كزما سمينار كيف الروحيّ ثمّ الأكاديميّة الروحيّة كذلك. وقد نشأت بين الكاتبين مراسلاتٌ وغدا كزما ناشراً أدب نعيمة في الاتحاد السوفياتيّ، حيث استطاع، وفي فترة زمنيّة قصيرة، أن يترجم عدداً من أعمال نعيمة الأدبيّة إلى الروسيّة. ومن بين تلك الأعمال «أبعد من موسكو ومن واشنطن»، الذي ترجمه كزما كلّهُ بطلبٍ من نعيمة، لكنّ الترجمة لم تبصر النور وظلت طي الكتمان، فما السبب؟

**«عليهم أن يقبلوه بطيبة خاطر!»، كيف ذلك والسلطة لا تقبل
بأي شكل من أشكال الانتقاد؟ كان
كزما يعرف جيّداً «أصحابنا السوفيات». وربّما
كان يعرف أنّه - وإن برّ بوعده لصديقه - فإنّ ترجمته لن تطبع.**

زار ميخائيل نعيمة الاتحاد السوفياتيّ بعد ٤٥ سنة على تركه بولتافا. مطلع آب / أغسطس ١٩٥٦ سافر الكاتب بالطائرة من بيروت إلى براغ، حيث أمضى يومين بدعوة من الحكومة التشيكوسلوفاكيّة، ثمّ أمضى في الاتحاد السوفياتيّ ٢١ يوماً وغادره في ٢٥ آب / أغسطس. خلال تلك الفترة زار موسكو، لينينغراد، كيف، بولتافا وستالينغراد. وبعد فترة قصيرة من عودته إلى لبنان كتب نعيمة انطباعاته عن الرحلة مضيفاً إليها أفكاره الفلسفيّة الكونيّة. في ٢٨ شباط / فبراير ١٩٥٧، دوّن رسالةً إلى صديقه الكيفي يقول فيها: «أمس انتهيت من وضع كتابي عن الرحلة القصيرة التي قمت بها الى الاتحاد السوفياتي، وقريباً أقدمه للطبع. وهو كتابٌ من نمطٍ جديدٍ في تحليل المجاري الكونيّة وفيها الصراع بين الرأسماليّة والشيوعيّة.

одобрение и они обещали похлопочать чтобы
ее осуществили.

Рассказывал мне и Новичкин

Не один раз, и с восхищением болышиим
об арабстве из Украинцев и Крымском, ~~какой~~
который в конце прошлого века я прожил
некоторое время в Бейруте, и о ^{его} подмак
котором-то вдалеке ему его пребывание
в Ливане. Он прогал мне некоторые из них.
Я вдруг услышал, как он воспекает ~~хорошо~~
~~любимую~~ Санин в одной из них
Санин, моего любимую дочь. Я сказал:
Боже! Боже! Кто мог бы сказать, о Сан-
ин, что я тебе везу в Киев? И это
другое доказательство ^{того, что} наш мир мал-
мал-, но в то же время он велик-велик,
если бы мы не засели его злобой, раздорами,
отчужденностью друг от друга - все это
мира, любви, взаимной помощи, взаимного
обустройства.

Из памфлетов, которые я посетил
в Киеве - это кафедра София ~~София~~
Софийской Софии. Находится он на возвышенности

❖
صفحة من مخطوط
ترجمة كزما لكتاب
«أبعد من موسكو
ومن واشنطن»

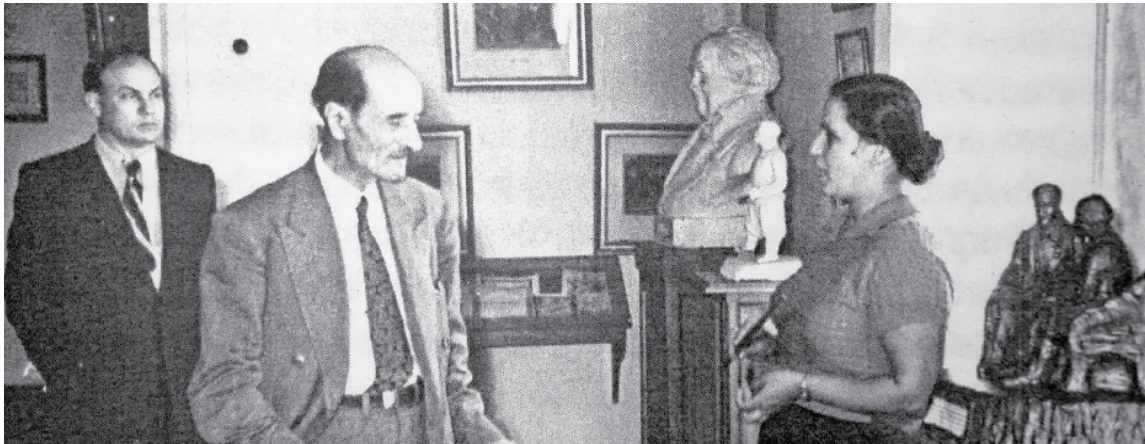
1 / سبتمبر ١٩٥٧، أي قبل وفاته بسنة أشهر، وكان مصيرها النسيان. فتعاطف ميخائيل نعيمة الهامس مع الشيوعية كان قد تراقق في كتابه مع معارضته للحزب، حيث كشف عن أفكار تناقض والأيدولوجية السوفياتية الرسمية، داعياً إلى قوة ثالثة، وذلك لن تمره إلى النشر أي لجنة رقابية بطبيعة الحال. فما الذي دعاه إلى الاعتقاد بأن كتابه سيُنشر بالروسية؟ أهو الاحتفاء به وتكريمه أثناء زيارته القصيرة؟ أم أنه كان يعول على أن الزمن سيتغير، وأن أفكاره التوفيقية سيكون لها مكاناً بالفعل على أرض الواقع؟ على أي حال، نامت مخطوطات الترجمة (دفاتر كزما، معهد المخطوطات، ملف ١٧٣، من ٣٤ إلى ٣٧) ستين عاماً إلى أن كشفت عنها الباحثة العلمية الأولى في قسم الشرقيين الأدنى والأوسط في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الأوكرانية يوليا بتروفا، حيث درستُها وأعدتُ طبع مقتطفات منها بعدما حررتها، وذلك في كتاب ضم مجموعة من البحوث الاستشراقية بعنوان «الطوق الساطع المختار في جواهر التقدير والاعتبار»، صادر عن جامعة كيف الوطنية للعلوم اللغوية، مخصص للاحتفال باليوبيل الماسي للمستشرفة الكبيرة ليديا بتروفا، بمشاركة كبار الباحثين والمستشرقين في أوكرانيا.

كشفت يوليا بتروفا، على ٣٤ صفحة من الكتاب التذكاري، خلاصة بحثها الطويل في أرشيف معهد المخطوطات التابع لمكتبة فيرنادسكي الوطنية الأوكرانية في كيف، حيث تضمنت مقدمتها تعريفاً بميخائيل نعيمة ورحلته السوفياتية، والعلاقة بينه وبين كزما والمراسلات بينهما، ثم أوردت تحقيقها لمخطوطات ترجمة الكتاب، حيث نشرت مقتطفات منه، مشيرة إلى التصحيحات التي أوردتها في النص. وبذلك تكون بتروفا قد أنهت جزءاً من مهمة توفيق كزما التي طالت سنة عقود من الزمن.

تحت الرقم (٣٨١٧٩)، ومن بينها محضر استجواب جاء فيه: «لقد وجهت إليك تهمة، وهي أنك أثناء إقامتك في الاتحاد السوفياتي كنت تمارس أنشطة تجسسية لصالح إحدى الدول الأجنبية»، وكان جواب كزما: «أيها الرفيق المحقق، أنا لم أشارك يوماً في أي نشاط تجسسي ضد السوفيات، ولا أقر بأنني مذنب». إلا أن ذلك لم يطل، فقد كانت السلطات السوفياتية بحاجة إلى التعاون مع النخب، خصوصاً بعد اتفاق جوزف ستالين مع أدولف هتلر واجتياح الجيش الأحمر غرب أوكرانيا وبسط سلطته على كامل أراضي الضفة اليمنى للدينير. وهكذا أرسل كريمسكي إلى لفوف لتنظيم العملية التعليمية والعلمية في جامعة لفوف، فيما كان كزما في السجن وقد تحولت حياته إلى عذاب بعدما فقد الأمل في إطلاق سراحه، حينذاك أقنع كريمسكي المدعي العام بمراجعة قضية كزما فأخلى سبيله. في مذكراته، يذكر كزما حادثة واحدة من تلك الفترة، عندما استُدعي للاستجواب، يقول: «وضعوني أمام معضلة، وهي هل أنا مسيحي أم مواطن علماني؟ وبفضل من الله أجبت أنني مسيحي وربما مواطن علماني سيئ، افعلوا ما تشاؤون بي! لكن عوض أن تتدهور حالتي بدأوا يحسنون معاملهم معي». في العام ١٩٤١، قبيل وصول الجحافل النازية اعتقلت السلطات كريمسكي واقتيد إلى معسكر اعتقال في كوستناي - كازاخستان حيث توفي، حلّ التبا كالكارثة على توفيق كزما الذي فقد خير مدافع عنه. بعد ذلك وحتى وفاته، أي في فترة ترجمة أعمال ميخائيل نعيمة إلى الروسية، كان يحتفظ في منزله بحقيبة فيها بعض الحاجيات معدة لحملها معه إذا ما اعتقل فجأة.

إلى العلن من جديد

أنهى توفيق كزما ترجمة ميخائيل نعيمة في ٢٢ أيلول



❖
نعيمة في المتحف
الأدبي التذكاري
خلال زيارته إلى
بولتافا سنة ١٩٥٦